من مفكرة مستجد

استوت الطائرة في وضعها الطبيعي، وطفقت تسابق السحاب عائدة بك إلى مدينتك، الموشومة في القلب وفي الذاكرة .. التقطت لفافة تبغ بين أناملك، وشرعت تأخذ أنفاسًا عميقة، كان الجالس إلى جوارك يغفو بين الحين والآخر، يبدو كأنه من عدة أيام لم يغمض له جفن، من شاربه الهلالي، ووجهه الأصفر يبدو وكأنه تركي.

فتحت حقيبتك الصغيرة، أخرجت منها كتابًا من الشعر، تصفحته برزت تلك القصاصة الصغيرة، المزينة الحواشي، قرأت فقرة منها.

«وحيدة أنا تعذبني الوحدة، وتؤرقني مرارة الانتظار، في غيابك أعد الأيام والأسابيع، وأحلم بك كل ليلة، فأنا أنتظرك، على أحر من الجمر»، تتلاشى سطور الرسالة من أمامك، تشرد بذهنك مع تلك الأيام، وكأنها شريط مرئي،

يمر أمامك للتو، تتذكر كيف ودعت والدك يومها، وكيف ربت على كتفك قائلًا لك:

ـ كل شيء يهون من أجل الوطن كن رجلًا يا بني.

مازلت تتذكر تلك الساحة المعبدة، التي كنتم تتدافعون نحوها، مع مطلع كل فجر، ببزاتكم العسكرية في لمح البصر، سرعان ما تصطفون في صفوف متراصة متناسقة، مازلت تتذكر يوم أن اصطففت في آخر السرية، والارتباك يبدو عليك، وشهر ديسمبر برياحه المسمومة القارسة وأمطاره الغزيرة يصفعك على وجهك، القشعريرة تسري إلى جسدك النحيل، طفقت تحملق في سرب الحمام، الذي يحلق أمامك فوق ذلك المبنى العتيق، ذكرك يومها بغادتك السمراء الغافية في أحضان تلك الواحة النائية، سرعان ما دب الحنين إلى قلبك، وهزك الشوق نحوها، يا لك من عاطفي ملول، يد فولاذية يومها دفعتك في عنف، أيقظك من شرودك أنه ضابط مديد القامة، مفتول الذراعين، على كتفه

تلمع نجمة يتيمة، يدفعك بيده القاسية، وشرر الغضب يتطاير من عينيه، قائلًا:

ـ تقف في استراحة والفصيل في استعداد أيها الغبي.

أحسست بالخطأ الجسيم الذي وقعت فيه بغبائك، اختلست النظر إلى الأجساد المنتصبة إلى جوارك وأمامك في استعداد، وتخيم عليها هالة الصمت، أصلحت من وضعك، هتفت بينك وبين نفسك:

ـ يالي من غبي حقًا.

الطائرة مازالت تشق عباب الجو، تمخر السحاب، المضيفة الشقراء الجميلة، ذات الشعر اللامع القصير تقترب منك وتسبقها رائحة عطر أخاذة سؤال يتكرر في لطف وأدب ومن بين شفتيها كحبتي الكرز.

ـ ماذا تشرب؟

أشرت لها إلى الشاي، فمدت لك بكوب منه، جارك التركي يصحو من غفوته، يرتشف كوب العصير دفعة واحدة، ثم يستسلم للنوم من جديد.

تعود تتذكر من جديد ذلك الضابط الزنجي المديد القامة، وكيف عاد إليك يومها .. بعد برهة يتهادى في مشيته بزهو، أمام السرية يرنو إلى الوجوه الحليقة، والأحذية اللامعة بوجهه البرونزي المتجهم، وخطواته الرزينة، ها هو يقترب منك، يقف أمامك في استخفاف وازدراء، يبادرك قائلًا:

ـ عندك مكتب بعد الدوام.

كنت مستجدًا يومها لم تكن تدري ماذا يعني المكتب؟ هل هو عقوبة؟ أم إجازة طارئة أم خروج أم ماذا؟ الطائرة مازالت تعانق السماء، الركاب بين متحدث إلى من هو بجواره، أو متصفح لمجلة أو صحيفة، أو مستغرق في نوم عميق.

يومها ما أن انتهت الحصة الأخيرة حتى كنت تقف أمام مكتب الضابط آمر السرية والاضطراب يبدو على وجهك المرهق، ومعك طالب آخر أقدم منك يحمل ثلاثة أشرطة على كتفه.

أدى التحية أدخلك عليه لم يلتفت إليك إلا بعد دقائق من اللامبالاة وعدم الاهتمام.

ـ أنت الرقم (.....).

ـ نعم يا سيدي.

ـ أتدري ماذا فعلت اليوم؟

ـ ....

ـ لقد كنت في استراحة والسرية في حالة استعداد.

سجل لك يومها العقوبة، وأمرك بالانصراف في غضب، انصرفت مهرولًا دون أن تنبس بكلمة واحدة .. أزيز الطائرة أخذ يعلو، شرعت تتمايل يمينًا ويسارًا، المضيفة الحسناء تقترب منك تأمرك بربط حزام الأمان تبرز أمامك شهادة التخرج من تلك الكلية العسكرية، تضعها في الحقيبة تشعر بالسعادة تغمرك والارتياح يثلج صدرك، بينما الطائرة توشك على الهبوط.